قراءة في ومضتين للسيد عدنان مهدي

د. جمال الجزيري

جامعة السويس، مصر

سأتناول في هذه المقالة القصيرة ومضتين للكاتب السعودي السيد عدنان مهدي، وهما ومضتا "سماء غزة" و"غبث". وهناك تباين واضح في المستوى بين هاتين الومضتين، فالأولى بها الكثير من المشاكل الفنية والثانية ومضة جيدة تقوم على السرد غير المباشر من خلال الحوار. وسأبدأ بومضة "سماء غزة" لأنها الأقدم على مستوى الكتابة إذ أنها نشرت على مجموعة سنا الومضة القصصية في شهر أغسطس 2014، ثم سأنتقل بعد ذلك إلى ومضة "عبث" المنشورة على المجموعة في شهر أكتوبر، وهي ومضة أكثر نضجا من الناحية الفنية ولا تشوبها عيوب الومضة الأولى.

يحيلينا عنوان ومضة "سماء غزة" مباشرة إلى العالم الواقع خارج فضاء النص الأدبي، ويشير هنا إلى مكان جغرافي محدد. يقول الراوي في هذه الومضة: **"انتهى القصف، بدأ القصف، عصافير غزة تبحث عن أقفاصها، مازالت تخاف الطيران".** ومشكلة الإحالة المباشرة إلى العالم الذي يقع خارج النص وبالتالي خارج مجال الأدب،

والمقصود بالأدب هنا النص السردي الذي بين أيدينا الذي من المفترض أنه ينتمي إلى نوع أدبي محدد، ومن المفترض أن يكون النص الذي ينتمي لهذا النوع مكتملا في حد ذاته بحيث يستطيع القارئ أن يتفاعل معه تفاعلا كاملا من داخله. فلنفترض أن قارئا ما لا يعرف شيئا عن غزة أو أن قارئا ما ينظر لما يحدث في غزة الواقعة خارج النص نظرة مخالفة للنظرة التي يراها ما خلالها الراوي هنا، لا أظن أن هذا القارئ سيستطيع التفاعل مع النص أو يستطيع أن يشكل نظرة متكاملة لما يقدمه عالَم النص هنا.

تتمثل المشكلة هنا في استعمال ألف ولام التعريف مع كلمة "قصف"، وكأن الراوي يضع في ذهنه قصفا محددا لا نراه مجسدا في نص الومضة. أي قصف هنا؟ ولماذا يكرر الكاتب كلمة "القصف" مع أنها فاعل في الجملتين؟ القصف يشير إلى حدث خارج النص معروف للكاتب وربما للقارئ أيضا، الأمر الذي يُفْقِدُ النص استقلاليته واكتماله. الومضة ظاهرها بضمر الغائب ولا يمكن قبولها كذلك إلا إذا أعدنا النظر في أسلوب السرد واعتبرناها مروية بضمير متكلم مستتر والراوي ينتمي للمجتمع الذي يدور فيه الحدث، فالحدث هنا لا يمكن لراو ملاحظ أن يبصره في حد ذاته، إلا إذا كان هو معرضا للقصف ويرى في العصافير معادلا موضوعيا لحالته.

وما علاقة الأقفاص بالطيران؟ الأقفاص لطيور الزينة، والطيور التي في الومضة عصافير يمثل الطيران بالنسبة لها هوية وحياة. ومن الواضح أنها عصافير برية غير مدجّنة أو بيتية. هل يقصد الكاتب بالأقفاصِ الأعشاشَ؟ أبراج الحمام؟ هل الحمام عصافير أم طيور؟ سوء استعمال المفردات يضيف عيبا آخر للومضة. وإذا كان الحدث يتعلق بالعصافير بوصفها الشخصية الرئيسية بل والوحيدة هنا في الومضة، هل يحتمل نص الومضة الكلمات الأربع لأول جملتين بها أم كان من الأفضل أن يحذف هاتين الجملتين ويستعيض عنهما بكلمة تدل على القصف في ثنايا الجملتين الأخيرتين؟

لا مشكلة في أن تدول أحداث النص المتخيَّلَة في أي مكان جغرافي، فالمشكلة تتمثل في عدم الالتزام بمتطلبات السرد من استعمال دقيق للمنظور واكتمال الحدث وعدم استعمال التعريف إلا إذا كان الشيء في النص معرَّفًا بالفعل داخل النص وفقا للعين التي تراه. ورورود كلمة القصف بالتعريف هنا لا تتماشى مع المنظور الخارجي المستعمل في بجاية الومضة، كما أن تكرار هذه الكلمة لا يحتمله نص الومضة.

التجربة التي يعبر النص في حد ذاتها جيدة، ولكن أسلوب صياغتها أضعفها. فلقطة العصافير المطارَدَة التي لا تستطيع أن تحلق

وتحقق ذاتها وهويتها فكرة جيدة، لكنها كانت تحتاج إلى تعبير أقدر على إيصالها وتجسديها. وفكرة البحث عن الأقفاص لا تتسق مع جوهر العصافير، فمن المفترض أن الخوف من القصف هنا يجعل العصافير تختبئ في أي مكان مثلا لا يعرضها للقصف. ولكن وجود الأقفاص هنا ينسف فكرة الومضة وينسف فكرة التعاطف الإنساني مع ما يحدث أو حدث في غزة. فإذا كان أهل غزة يرون أن المكان المناسب والأصيل للعصافير هو الأقفاص، ومن هنا يرون أن العصافير للزينة فقط ولابد من سجنها في أقفاص، كيف للقارئ أن يندمج في عالم الومضة؟ وكيف له أن يبصر النقاط الإنسانية المشتركة بين عالمه وعالم الومضة؟

تعاطف الكاتب مع قضية أو فكرة ليس كفيلا بإنتاج نص أدبي جيد، فالنص الأدبي لابد أن يتجسد فيه الصدق الفني بحيث تكون كل كلمة فيه متفاعلة نفسيا ووجدانيا وتعبيريا ودلاليا وإيحائيا مع الكلمات والتعبيرات الأخرى ولابد أن يُصَبَّ كل ذلك في كُلٍّ فنيٍّ متكامل.

سأنتقل الآن إلى تناول ومضة "عبث" للسيد عدنان مهدي. وهي ومضة مختلفة تماما عن ومضة "سماء غزة". فعلى مستوى العنوان، جاء عنوانها بصيغة التنكير التي تصف الحالة العامة التي يجسدها النص ويبرزها داخله. وعلى مستوى السرد، اكتفى الراوي بالمنظور

الخارجي دون أي تدخل منه حتى على مستوى الصياغة، فالومضة منقولة لنا من خلال الحوار بين شخصيتين. وتوجد هنا أيضا إحالة إلى ما هو موجود خارج العالَم النصي، ولكنها ليست إحالة إلى عالمنا الواقعي، وإنما هي إحالة إلى نص أدبي آخر وهو مسرحية "في انتظار جودو" للكاتب الأيرلندي الذي يكتب باللغة الفرنسية صمويل بيكيت. ويمكننا أن ننظر إلى الومضة هنا على أنها تقيم علاقة تناص مباشر مع مسرحية بيكيت وكل المسرحيات اللاحقة عليها المستوحاة منها. وها هو نص الومضة:

عبث

- لن يأتي غودو.

- لكنه سيأتي.

- تأكدت، لن يأتي.

- ماذا نفعل إذن؟

-هههه، ننتظر غودو.

تتكون هذه الومضة من خمس جمل حوارية: أول جملتين ترجعاننا إلى النص المسرحي الذي تتناص معه الومضة وما فيه من تردد بين الانتظار وعدم الانتظار، من تأمل أو تناول لفكرة الانتظار

ذاتها. ولكن الجملة الحوارية الثالثة تجعلنا ننظر إلى الشخص الأول على أن جملته الأولى تأكيدية وليست ظنية أو تأملية. فهذا الشخص تأكد من عدم قدوم جودو ومن لاجدوى الانتظار. ويرد عليه الشخص الثاني بسؤال يبدو أنه حقيقي يطلب التشاور حول الخطوة التالية: ماذا يفعلان بعد أن تأكدا من أن انتظارهما لذلك الجودو بلا معنى؟ وتأتي نهاية النص لتضيف بُعدا ساخرا للانتظار بأكمله. فالضحكة هنا توحي بأن الجملة التالية عبارة عن مفارقة قولية تدل على عكس معناها، وكأن الشخص الأول الذي ابتدأ الحوار يؤكد على نيته في عدم الاستمرار في هذا الانتظار العبثي. ويستخدم الكاتب هنا الضحك والمفارقة ليسائل مفهوم الانتظار في حد ذاته ويسائل ما فعله هذان الشخصان بحياتهما طوال فترة الانتظار. والكوميديا هنا تخفف من وطأة الإحساس بضياع حياتهما سدى في انتظار لا يحقق شيئا.

نص الومضة هنا متكامل في حد ذاته ولا يتدخل فيه الراوي بشيء ولا يحيل إلى شيء خارج النص قد لا يكون معروفا في حد ذاته. وحتى الإحالة التناصية إلى مسرحية صمويل بيكيت يمكن للقارئ أن يقرأ النص بعيدا عنها. فيوجد هنا شخصان ينتظران شخصا ثالثا ويبدو أنهما ينتظرانه منذ فترة طويلة وعندما يتأكدا من عدم مجيء ذلك الشخص الثالث يحولان انتظارهما الطويل له إلى مادة فكاية

ويسخران من هذا الانتظار. ومن المعروف أن السخرية تعتبر وسيلة من وسائل المقاومة وكذلك الضحك، مقاومة الإحساس بالخيبة كي لا ينكسر الإنسان أو يكتئب عندما يدرك أن حياته الماضية لم يعشها كما ينبغي أو أنه أضاعها في أشياء لا جدوى من ورائها، وتجنب الانكسار هنا يؤهل هذين الشخصين لأن يصححا مسار حياتهما ويقوما بأشياء تحاول أن تعوّض ما فاتهما.

مراجع

السيد عدنان مهدي. "3 ومضات". ومضات أغسطس 2014. الكتاب الرابع في سلسلة كتاب الومضات الشهرية الالكتروني. سلسلة شهرية تصدر عن مجموعة سنا الومضة القصصية على الفيسبوك. تحرير وتقديم: جمال الجزيري. الجيزة: حمارتك العرجا للنشر الالكتروني، 2014. ص 49.

obeikandi.com